

ماجد هديب ❖ تساؤلات حول "الربيع العربي"

سنحاول في هذا المقال ان نجيب عن التساؤل الرئيس: ما هو مستقبل دول الربيع العربي في ظل نجاح الدول الغربية التحكم باتجاهات رياح تغيير الأنظمة فيها. وذلك في ضوء الاستراتيجيات الأمنية الامريكية، خاصة تلك المتعلقة منها بإعادة صياغة العلاقة والتحالفات مع دول الربيع العربي على قاعدة المصالح العليا للولايات المتحدة الامريكية؟. كما علينا الإجابة عن بعض الأسئلة المتفرعة عن هذا التساؤل الا وهي: هل فشلت ثورات الربيع العربي في تحقيق أهدافها؟ أم ان الأوضاع الحالية في العالم العربي تشكل الأرضية لثورات جديدة من أجل الاستمرار في تحقيق تلك الأهداف؟، وهل المجتمعات العربية قادرة الان. وفي ظل تلك الأوضاع على قيادة ثورات جديدة. أم أنها باتت منهكة القوى لا أمل منها؟، وما هي رياح التغيير الاستعمارية التي تهب ما بين الفترة والأخرى، وكيف بدأت، وما هي الظروف التي تنتهي فيها؟، وما هي الأسباب التي حملت الإدارة الأمريكية بتغيير قواعد لعبة الرياح. وذلك بان جعلت من الجماهير العربية نفسها هي من تتحرك لإسقاط الأنظمة بعد أن كانت ولوقت طويل قد جعلت من تلك الجماهير في حالة من العبودية لتلك الأنظمة؟، وهل يمكن أن تأتي هذه الرياح بنتائج عكس ما تم التخطيط إليها والخروج عن نظام التحكم باتجاهاتها؟، وما هو دور الإعلام والدين في التحكم باتجاه تلك الرياح؟، ولماذا تدخل الغرب لصالح بعض الأنظمة من أجل إعادة الاستقرار فيها بعيدا من رياح التغيير كما حدث في البحرين. في حين ان الغرب قد ساند بعض تلك الثورات من دون حسم الأمور فيها؟ وهل يمكن للامة العربية أن تعيد عافيتها من خلال التصدي لمشاريع التفتيت والتشطي والتكفير التي جاءت بها رياح التغيير؟

كثيرة هي تلك الأسئلة التي يجب أن نحاول الإجابة عنها من أجل استشراف مستقبل دول الربيع العربي والمنطقة الشرق أوسطية بشكل عام، وذلك بعد استقراء التاريخ من أجل اعطاء لمحة عن رياح التغيير التي جاء بها التحالف الاستعماري على مر العقود تحت مسميات مختلفة، ولنبدأ من حيث بدأت تلك الرياح في إلقاء أعاصيرها التدميرية للهوية

(* كاتب وصحفي
فلسطيني

العربية والإسلامية مع تذويب انتماء جماهيرها لعقود خلت.

الرياح الاستعمارية الأولى للتغيير في المنطقة العربية

ذكرنا وفي مقالات عدة، وقبيل ثورات الربيع العربي، بأن هناك رياح استعمارية قادمة من أجل التغيير في بعض الدول العربية قصد تغيير معالم المنطقة، وذلك وفقا لما تفتضيه مصالح الاستعمار فيها، وهي تماما كرياح التغيير التي مر بها العالم العربي عندما صدر القرار الاستعماري بإنهاء الدولة العثمانية (١)، وإذا ما كانت رياح التغيير الحالية التي انطلقت أعاصيرها وما زالت مشبعة بألوان الديمقراطية وحقوق الإنسان والتي اصطلحوا على تعريفها بالربيع العربي، فإن رياح التغيير التي كانوا قد مهدوا لها لإنهاء الدولة العثمانية كانت مشبعة أيضا بغيوم رسموها بألوان العروبة والدين، وما كان لتلك الرياح باختلاف أسبابها وعوامل تحريكها والتحكم باتجاهاتها ان تتم ما لم تكن مدعومة من دول الاستعمار نفسها، فإذا ما كانت رياح التغيير قد انطلقت قرار تحريكها في مؤتمر كامبل الاستعماري عام ١٨٩٧ (٢)، فإن رياح التغيير الحالية مدعومة أيضا من الولايات المتحدة الأمريكية كقوة استعمارية في ظل عالم أحادي تتحكم في كل ما تشاء، وذلك كوريثة للتحالف الاستعماري القديم من أجل إعادة صياغة الأنظمة العربية بما يحقق نظام شرق أوسطي تستطيع إسرائيل من خلاله بناء دولتها الكبرى وتحقيق اتفاقية جديدة على غرار اتفاقية سايكس بيكو. فما هي تلك الرياح التي استخدمتها الدول الاستعمارية لتغيير المنطقة بإنهاء الدولة العثمانية وإعادة تقسيم ممتلكاتها؟ وما هي الرياح الأخرى التي أعقبتها من أجل التغيير أيضا وإعادة التقسيم من أجل استقرار كيانات واسقاط عروش؟.

رياح العروبة والدين لإنهاء الدولة العثمانية وتقسيم ممتلكاتها

كانت دولة الخلافة العثمانية بنظر الإنجليز عقبة تقف في طريق توسعهم واستعمارهم، ولذلك تم الاتفاق في مؤتمر كامبل الذي حضرته الدول الاستعمارية في حينه على تجزئة الولايات الإسلامية والإبقاء على تفككها، والعمل أيضا على فصل الجزئين الأفريقي والأسوي عن الآخر مع إقامة حاجز بشري قوي وغريب في نقطة التقاء الجزئين يمكن للاستعمار أن يستخدمه أداة طيعة في تحقيق أغراضه.

وما ان انتهى المؤتمر من تدارس أفكار الأعضاء فيه حتى بدأت الدول المشاركة بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه من إنهاء للدولة العثمانية والاستيلاء على ممتلكاتها، ولذلك استطاعت تلك الدول الاستعمارية جذب الهاشميين والصهيونيين للعمل معهم خدمة لمخططاتها التي تم الاتفاق عليها في مؤتمر كامبل، وهي الإنهاء والتقسيم، وذلك في الوقت الذي كان فيه العداء المشترك للدولة العثمانية مثابة بداية تحالف مشترك بين هؤلاء جميعا بهدف القضاء على تلك الدولة وصولا لأهداف تطلعوا إلى تحقيقها، فالهاشميون كانوا يتطلعون لبناء دولة

عربية في ظل زعامة هاشمية ، في حين تطلع الصهيونيون إلى تحقيق حلمهم في بناء الدولة اليهودية (٣)، ولا يمكن تحقيق كل من تلك الدولتين الهاشمية واليهودية لتحقيق المصالح الاستعمارية من دون انهيار الدولة العثمانية وتجزئتها كما سعى إلى ذلك الغرب منذ مئات السنين ، ولذلك تم الإعداد لرياح التغيير.

كانت العروبة والدين هي عنوان تلك الرياح، وذلك لإنجاح ما تطلع محركوها إلى تحقيقه من تفتيت وتشظي وصراع ، على غرار ما كان يحدث في تلك الدول نفسها من انهيار وتخلف نتيجة ما كان يحدث من صدام وصراع في ذلك الوقت بذريعة الإصلاح الديني في الكنيسة بفعل ما كانت تمارسه من استغلال مادي مع شتى القوميات في أوروبا، من أجل ذلك اتجه الغرب لرسم هذا السيناريو وإطلاق رياح التغيير قصد أحداث التناقض والصدام ما بين الخلافة العثمانية والقومية العربية، تماما كما كان الصدام ما بين سلطة الكنيسة والقوميات الأوروبية التي كانت قد اضعفتهم لعقود نتيجة الدعوة للقومية كردة فعل ضد إشكاليات سيطرة الدولة الدينية مع تجريد البابوية من كل سلطاتها وأملكها، والدعوة أيضا لرفض الخضوع لسلطان البابا.

من هنا بدأت معالم المنخفض الذي بدأت آثاره في الحرب العالمية الأولى لتنفيذ هذا المخطط، ولذلك كان لا بد من تهيئة العوامل المساندة لإنجاح ذلك المخطط بإيجاد ما سمي في حينه الثورة العربية الكبرى التي بسوا رياحها رداء العروبة والإسلام، وقد نجحت في حينه الدول الاستعمارية بما سعت إلى تحقيقه، ف جاء الانهيار السريع للدولة العثمانية وتقسيم ممتلكاتها، مع إنهاء الخلافة الإسلامية والإعلان عن تأسيس الركائز الاستعمارية الجديدة لحماية المصالح الاستعمارية وحماية دولة إسرائيل الموعودة، ومنع أي اعتداء عليها، كما كان إنشاء بعض الكيانات الخليجية بعد أن كانت قبائل بدوية متناحرة في الصحراء، وذلك ثمن ملاحقتهم لجنود الدولة العثمانية والإغارة على قوافلها العسكرية وطعن جنودها من الخلف .

ومع تفاهم حركات الاستعمار المتنافسة وتوزيع ما تم الاستيلاء عليه وفقا لما تقتضي مصالح كل منهما ومخططاتهما المستقبلية، فكان لا بد من إعادة صياغة أنظمة سياسية بإنشاء دول جديدة مع اسقاط عروش قائمة، وذلك وفقا لما تقتضيه ظروف الاتجاه نحو عقد تحالفات ومعاهدات ترتبط مع دول الاستعمار تحت عنوان استقلال تلك الدول وحمايتها، فما هي تلك الرياح الجديدة التي أعقبت رياح الدين والعروبة والتي استخدمتها قوى الاستعمار في المنطقة من أجل إعادة البناء والتغيير بعد تنامي ظاهرة المد الثوري والمطالبة بوحدة الأنظمة والشعوب لتحقيق الاستقلال ، وذلك بعد ان ادرك العرب خديعة الاستعمار لهم اثناء الحرب العالمية الأولى وفي اعقابها؟

رياح الانقلابات العسكرية لإنهاء المد القومي والتحرري

مع انتهاء الحرب العالمية الأولى والثانية وتيقظ الشعور الثوري في الشارع العربي والإسلامي نتيجة المخططات الاستعمارية التي اكتشفتها الجماهير العربية في وقت متأخر، فإنه كان لا بد لدول الإستعمار من إيقاف هذا المد وانحساره ، فجاءت موجة الانقلابات العسكرية بحجة القضاء على الدكتاتوريات تارة، وتارة أخرى بحجة القضاء على الدعم النازي لبعض الكيانات، ولم تتوقف تلك الانقلابات، بل أنها كانت تأتي بالتتالي كلما دعت الحاجة الاستعمارية إليها، وذلك حتى بداية العقد السبعيني ، فإذا ما كانت الانقلابات التي تمت بعد الحرب الثانية قد تمت لإنهاء المد الثوري كما حدث لثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد الركيزة الاستعمارية فيه وذلك في سنوات العقد الأربعيني، فإن الانقلابات وعمليات الضم والإلحاق التي تمت بعد نكبة فلسطين كانت هي أيضا للحفاظ على الدولة اليهودية التي تم إعلانها بعد سيناريو حرب العام ١٩٤٨ . وإذا ما كان نجاح الملك عبدالله الأول بالحقاق الضفة الغربية الى امارته لتوسيعها وإعلان مملكته الموسعة قد تم بتخطيط مع الحركة الصهيونية وبمساندة وموافقة من الانجليز أيضا. فان ثورة يوليو المصرية هي الاخرى ما كان لها أن تنجح من دون التهيئة الغير مباشرة لها من الانجليز والدولة اليهودية، وذلك بعد ان البسوها هي الأخرى رداء العروبة من أجل الانقلاب على النظام الملكي بحجة الخلاص من فساد، في الوقت الذي كان فيه الملك فاروق قد تعهد صادقاً بتحرير فلسطين مع التزامه بمنع الملك عبدالله الأول من الاستمرار في إجراءات الضم والحقاق المناطق الفلسطينية الى مملكته لما في ذلك الضم والالحاق من تدويب للهوية الفلسطينية وفقا لما جاء في اقوال الملك فاروق نفسه ردا على مؤتمرات بعض الفلسطينيين المشبوهة والممولة لمبايعة الملك عما اقدم عليه من ضم للأراضي الفلسطينية.

ومع إعادة الشعور الوطني، ورفض تلك السياسات الاستعمارية أيضا، وبداية انحسار الأنظمة والكيانات الاستعمارية في ظل النفوذ الفدائي الفلسطيني وتصاعد عمليات الثورة الفلسطينية نتيجة التفاف الجماهير العربية حولها، فإن الانقلاب في سوريا قد جاء سريعا على الحكومة التي أعطت الأوامر بحماية المد الثوري في الأراضي الأردنية، حيث استطاع الرئيس الراحل حافظ الأسد، ووفقا للأوامر الأمريكية في حينه بالاستيلاء على مقاليد الأمور في سوريا. وذلك للمساعدة في الحفاظ على الركيزة الاستعمارية في شرقي الأردن بأن أوقف الإمدادات التي كانت في طريقها إلى حماية الثورة الفلسطينية هناك ، ومنذ ذلك الحين والأنظمة العربية هي أنظمة وظيفية لم تخرج عن فلك خدمة الاستعمار وحماية مصالحه في الوقت الذي تم فيه تقسيم تلك الدول ما بين محورين وهي دول المقاومة ودول الاعتدال، مع انه وفي حقيقة امر تلك المحاور لم تخرج عن اطار دغدغة مشاعر المواطن. وحمله أيضا على التزام الصمت على الأنظمة القائمة بذريعة ضرورة الصبر

والتضحية من أجل البناء الإستراتيجي لقتال إسرائيل، في الوقت الذي لم تأتي فيه تلك الأنظمة الا من أجل حماية إسرائيل، ومنع أي اعتداء عليها.

معظم الأنظمة العربية التي جاء بها الاستعمار كانت قد استمرت لعقود كأنظمة وظيفية، إلا ان طول بقائها جعل من وجود بعضها كملكيات وجمهوريات مطلقة نتيجة التعايش بينها والجماهير، حيث أصبح البعض منها يبحث عن تثبيت وجوده بعيدا من املاءات دول الاستعمار وابتزازاتهم اعتقادا منها بأحقية الوجود والاستمرار لعقود قادمة، ولذلك جاء التفكير الأمريكي بتغيير تلك الأنظمة مع تدمير ما في حوزتهم من ترسانة عسكرية قد تضر بأمن إسرائيل مستقبلا فيما لو تم الاحتفاظ بوجودها بعد اسقاط تلك الانظمة، ولذلك فان رياح التغيير كانت قد جاءت من أجل اسقاط تلك الأنظمة او اضعافها، مع متابعة دول الاستعمار لتلك الرياح من أجل التحكم باتجاهاتها وعدم الخروج عن سيناريو بناء الشرق الأوسط الكبير الذي رسمت لإيجاده ضماناً لأمن إسرائيل مع إبقاء سيطرتها المطلقة على المنطقة، فما هي تلك الرياح التي أعدتها الولايات المتحدة الامريكية لإسقاط بعض العروش واطعاف دول أخرى من دون تغيير الانظمة فيها؟، وما هي أدوات التحكم في اتجاهاتها وبما يضمن هذا التحكم تحقيق أهدافها في التغيير؟

رياح الديمقراطية وحقوق الإنسان من أجل بناء الشرق الأوسط الجديد

بعد انفراد الولايات المتحدة الامريكية في العالم والاتجاه نحو إعادة صياغة التوازن الدولي بطريقة شاملة وفق رؤية تخدم مصالحها، فإنها كانت قد اتجهت نحو إعادة صياغة الأنظمة العربية بما يخدم اقامة نظام الشرق الأوسط البديل عن النظام العربي الرسمي، وذلك بعد تهيئة الظروف لإعادة تلك الصياغة، وبما لا يخرج استمرارها عن نطاق سيطرة من خطط لها، وذلك من أجل الحفاظ على إسرائيل بعد سقوط تلك الأنظمة، ولذلك كان لا بد من الإعداد للثورات على تلك الأنظمة التي حمتها لعقود من أجل إعادة فك وتركيب الخريطة السياسية والجغرافية للمنطقة من حيث زوال دول أو تقليصها جغرافيا، وإقامة دول أخرى جديدة على أقاليم مستقطعة من هذا الكيان أو ذاك، ولم تكن أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ باعتقادي إلا مقدمة لهذا التغيير وإعادة بناء المنطقة يقوم أساسه على الاعتراف بإسرائيل وإقامة علاقة سياسية واستراتيجية معها . والعمل أيضا على إنهاء الجامعة العربية كمنظمة إقليمية ذات طابع قومي وصولا لتسوية القضية الفلسطينية سياسيا، وبما يتماشى مع الرؤى الإسرائيلية والأمريكية، وبما يحقق أمن إسرائيل المطلق وهيمنتها الإقليمية.

إن النجاح الأميركي في إسقاط هذه الأنظمة بالتتابع ما كان له أن يحدث سريعا إلا بتوفير عوامل مساعدة. ومن بينها تعزيز مؤسسات المجتمع المدني في الدول المرشحة لإسقاط الأنظمة فيها. بالإضافة إلى الجيوش العربية نفسها، حيث بتنا نلاحظ اليوم بان من

يحرك الجماهير العربية ليست الأحزاب التي اكتوت بنار تلك الأنظمة . لأنها فقدت هي الأخرى مصداقيتها لارتماؤها في أحضان الأنظمة ومغازلتها بين الحين والآخر. بل إن الحركات الاجتماعية التي قامت أميركا بتغذيتها ومدتها بأدوات الدعم باسم الجمعيات الأهلية ومؤسسات حقوق الإنسان هي التي تقوم بذلك فأصبحت تلك الجمعيات والمؤسسات هي المحركة لعواطف الجماهير. وذلك بعد نجاحها في دغدغة عواطفهم وتأليبهم من أجل التحرك بذريعة حق المطالبة بتغيير واقعهم . مع حل ما تعانیه تلك الجماهير من مشكلات ونقص في الاحتياجات .

منذ مجيء الرئيس بوش الابن كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد دأبت على الاتصال المباشر بقيادة الجيوش العربية في بعض الدول العربية لتتويج تلك النجاحات واستثمار رياح التغيير . فكان شراء الذمم والولاءات لقيادات تلك الجيوش بما يحقق متطلباتها. وذلك عندما يأتي فيه ذلك اليوم الذي تقرر فيه تلك الإدارة عزل أنظمتها الشمولية الفاسدة وتركهم من دون حماية من شعوبهم بعد إتمام لعبة إسقاطها . وهذا ما حدث من الجيش التونسي . وهذا ما فعله الجيش المصري أيضا . وذلك بعد أن طلبت منه الإدارة الأمريكية رسميا بالتدخل تحت مسمى ضبط الأمن . في الوقت الذي عملت فيه الإدارة الامريكية على تغذية الصراع لإطالته في دول أخرى من أجل عدم حسم الصراع فيها لاستنزاف قدرات الجيش ودفعه الى التفكك والانهيار كما تحاول ان تفعل الان في سوريا . صحيح بان التونسيون نجحوا بإقامة نظام ديمقراطي، وذلك بعد ان استطاعوا افشال محاولات الثورة المضادة، كما ونجح الجزائريون في تطويق محاولات إعادة بلادهم الى الفوضى والفلتان الأمني . الا ان الصراع في ليبيا لا يزال محتدما رغم سقوط النظام فيها، وهو نفسه ما يحدث الان في اليمن وسوريا، حيث وصل الصراع هناك الى حد المذابح الجماعية وحدوث الكوارث الإنسانية. وهذا ما يجعلنا نتساءل لماذا هذا التفاوت في نجاح بعض الثورات فيما فشلت ثورات أخرى او تم افشالها؟، وما هو الدور الأمريكي في ذلك، ولماذا؟

وهذا ما سنحاول الإجابة عنه، ولكن بعد ان نتحدث عن دور الثورات والثورات المضادة لها في تحريك رياح التغيير والتحكم باتجاهاتها من أجل تغيير الأنظمة وفقا لما تقتضيه مصالحها.

ثورات الربيع العربي ما بين الثورات المضادة لها والتحكم الغربي بها

ان أي ثورة، وسواء كانت مسلحة او شعبية ، لها اهداف تسعى الى تحقيقها، ولعل أول الأهداف التي سعت اليها ثورات ما يسمى الربيع العربي. وسواء تلك التي كان وقودها حناجر المسحوقين .او حتى تلك التي تصاعدت بأسلحة المدسوسين هي الوصول إلى السلطة، وقد استطاعت تونس تحقيق ذلك فعلا رغم ما يعترها الان من مخاطر . فلماذا

فشلت الثورات الأخرى بتحقيق أهدافها؟، وهل معظم الثورات هي فعلا كانت من اجل الوصول الى السلطة من اجل تحقيق اهداف الجماهير بالتححرر والبناء وإرساء مؤسسات العدل والقانون؟ أم ان البعض قد مهد العوامل لتلك الثورات من اجل اسقاط الأنظمة فقط. ومن ثم كان التخطيط والتنفيذ من اجل الانقضاض على ما تم تحقيقه لصياغة برامج وتحالفات تخدم اهداف الغرب الاستعماري. ولذلك كانت الثورات المضادة في بعض الدول.

من المعلوم ان الثورة المضادة هي رد فعل على ثورة قائمة، سواء كانت تلك الثورة قد حققت أهدافها واستطاعت الوصول الى السلطة، او حتى على الثورة التي ما زالت في حالة ديمومة لعدم تحقيق ما تصبو اليه من أهداف، وذلك من اجل التصادم معها اما لإضعافها، او دفعها للسير باتجاه معاكس للأهداف التي انطلقت من أجلها، او لإسقاطها والقضاء عليها، وذلك من خلال إجراءات متبعة، فما هي تلك الإجراءات، وما هي المصلحة في ذلك؟.

لعبت الولايات المتحدة الامريكية على محاور كثيرة من اجل إطالة امد الصراع في بعض دول ثورات الربيع العربي وحسم بعض الثورات في دول أخرى، فاذا ما كانت قد وقفت بشكل حاسم مع إجراءات دول الخليج بمنع امتداد المظاهرات في البحرين من اجل منع تدرجها ووصولها لمستوى ثورة شعب يطالب بحقوقه المدنية والسياسية، فإننا قد شهدناها في دول أخرى قد ساندت تلك الثورات ولعبت على تناقضات المشاركين فيها من أجل ادامة الانقسام والاققتال.

كانت الولايات المتحدة الامريكية وما زالت تستخدم العامل الديني لضبط اتجاهات رياح التغيير لبعض الانظمة، ولكن ونتيجة لعدم فاعلية هذا العامل في بعض الدول نتيجة اعتمادها على الاخوان المسلمين، وعدم نجاح هؤلاء في التأثير بأحداث الثورة كما حصل في بداية الثورة السورية وفقا لما خططت له الإدارة الأميركية من حيث القيام بعمليات الصدام المباشر لضرب النظام في بعض المناطق، فإنها عملت على احداث عمليات تناقض داخل التيارات الدينية نفسها. وذلك من خلال دفع هؤلاء نحو التصادم فيما بينها على قاعدة خلافية وهي تحديد الأولويات ما بين الأصولية والوسطية والمعاصرة، حيث ازداد هذا التناقض الى حد القتال فيما بينهما من خلال احياء أفكار القاعدة بثوب تنظيم الدولة الإسلامية "داعش"، مع إيجاد التناحر ما بين هؤلاء أيضا وبعض التيارات التي تستند بانطلاقة ميليشياتها تحت راية العروبة، لما في مسألة العروبة من نجاح في اثاره الطوائف والمذاهب والعرقية، وذلك قصد احداث الصراع والتشظي والتفتت نتيجة الخصومة مع العروبة في الداخل مما يمنع ذلك الاتجاه نحو تحقيق التكامل لتنفيذ الاهداف.

المراجع

(١) رسالة مفتوحة إلى إعلاميي قناة الجزيرة ومراسليها، مقال منشور للكاتب بتاريخ ٢٠٠٩، دنيا الوطن.

<https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2009/02/28/158145.html>

(٢) الأنظمة العربية بين رياح من صنعتهم وغضب من استعبدتهم، مقال منشور للكاتب، الحوار المتمدن-العدد: ٣٢٦١ - ٢٠١١ / ١ / ٢٩،

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=243628>

(٣) الهاشمية والصهيونية وجهان لعملة واحدة (الأطماع - الزعامة - التوسع)، الجزء الأول، ط١، كتاب منشور للكاتب، ٢٠١٢